

ابن تيمية .. الإمام الممتحن

بقلم : عبد الآخر حماد

كنت قبل أيام أحاور مجموعة من الشباب حول جوانب من حياة الإمام ابن تيمية رحمه الله فقال لي أحدهم : ألا ترى معنا أنه لو كان ابن تيمية حياً في عصرنا لوجدناه مع الثوار في ميدان التحرير منذ الخامس والعشرين من يناير؟ فقلت : قد كنا في ثمانينات القرن الماضي نقول : لو كان ابن تيمية حياً لكان معنا نزيلاً دائماً في سجون مبارك، ذلك أنه لم تكن تخلو قضية مما كان يلفقه لنا جهاز أمن الدولة من ذكر ابن تيمية وكتبه وأقواله، وقبل ذلك أذكر أنه قد أشيع - إبان أحداث الإخوان المسلمين في سوريا في سبعينات القرن الماضي - أن النظام السوري قد أعلن عن جائزة قدرها نصف مليون ليرة لمن يأتي بابن تيمية حياً أو ميتاً !

والمعنى في ذلك كله واحد وهو أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان صاحب فكر ثوري ظل يهدد عروش الظالمين حتى بعد وفاته بقرون .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن ابن تيمية كان كإمامه أحمد بن حنبل رحمه الله يرى عدم مشروعية الخروج المسلح على الحكام الظالمين، لكن مواقفه في الصدع بالحق وحمله هموم الأمة هي التي أعطته صورة الشيخ الثائر الملهم لأجيال كثيرة من بعده .

لقد كان ابن تيمية إذا خاطب الحكام ذكّرهم في قوة وحزم بما يجب عليهم من نصره الدين والذود عن حياض الإسلام كما فعل مع سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون حين تقاعس عن الخروج إلى بلاد الشام لصد الغزو التتري عليها في سنة سبعمائة للهجرة، فقد جاءه من بلاد الشام يذكره بأن بلاد الشام داخله تحت سلطانه وأن عليه أن يخرج بجنده لنجدة أهلها وإلا ((أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن))، ثم لم يزل بهم كما يقول ابن كثير حتى جردت العساكر إلى الشام ثم قال لهم : ((لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف

وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم)). [البداية والنهاية (17-15/14)].

ثورة شاملة :

بيد أن ثورة ابن تيمية لم تكن ضد أهل الحكم والسلطان وحدهم، وإنما كانت ثورته ثورة شاملة على كل انحراف أو ضلال، فهو في مجال الاعتقاد تائر على أهل الخرافة والبدجل وله معهم صولات وجولات في بيان أباطليهم والمطالبة بالعودة لعقيدة السلف النقية الواضحة، وهو في مجال الفقه تائر على الجمود والتقليد الأعمى لا يستنكف أبداً أن يخالف مذهبه وشيوخه إذا كان الدليل الشرعي على خلاف قولهم، وهو في المجال الاجتماعي قائم بالحق أمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر مصلح بين الناس .

وكان يمكن لابن تيمية أن يظل قابلاً في مسجده يعظ الناس ويذكرهم بأمر الآخرة مولياً ظهره لهموم الناس ومشكلاتهم، لكنه لم يكن ليرضى بذلك لإدراكه العميق لحقيقة دور المسجد في الإسلام، فالمساجد هي - كما يقول ابن تيمية - مواضع الأئمة ومجامع الأمة ((فإن النبي صلى الله عليه وسلم أسس مسجده المبارك على التقوى ففيه الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم والخطب، وفيه السياسة وعقد الأولوية والرايات وتأمير الأمراء وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم)) . [مجموع الفتاوى 39/35] .

محن وابتلاءات :

ومن أجل ذلك ضاق به ذرعاً دعاة الباطل وأدعياء الدين في عصره، وصاروا يستعدون العوام وأهل السلطان عليه، فدخل السجن مرات عدة، وفي محبسه كان يتحمل ما يلقي راضياً محتسباً، وكان يقول كما يروي تلميذه ابن القيم : ((ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنيتي وبستاني في صدري؛ أنى رحمت فهدى معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القاعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه

من الخير, ونحو هذا وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى, والمأسور من أسره هواه). [الوابل الصيب ص: 53]

وقال ابن القيم أيضاً: ((كنا إذا ضاقت بنا الدنيا ونحن في دمشق ذهبنا لزيارته في السجن في القلعة، فوالله ما هو إلا أن نراه حتى يُسرى عنا)) .

وقد كان ابن تيمية في سجنه يكتب الرسائل والمؤلفات ويجيب عن أسئلة السائلين، قال عنه ابن كثير في حوادث سنة 707 : ((واستمر الشيخ في الحبس يُستفتى ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشككة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس فيكتب عليها بما يجبر العقول من القرآن والسنة)) . [البداية والنهاية 48/14]

ولم يكن يحز في نفسه وهو في محبسه إلا أنهم كانوا في بعض الأحيان يمنعون عنه الكتب والأوراق والمحابر والأقلام، كما حدث في حبسته الأخيرة التي توفي فيها وهو في محبسه بقلعة دمشق سنة 728هـ .

العفو عند المقدرة :

وكما فعل إمامه أحمد بن حنبل حين عفا عن آذوه وعذوبه في محنة خلق القرآن كذلك فعل ابن تيمية مع أعدائه ومناوئيه ومن حرضوا السلاطين عليه، فقد استفتاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون يوماً في قتل بعض القضاة الذين كانوا قد آذوه إيذاءً شديداً، وكانوا أيضاً قد أفتوا بعزل ذلك السلطان، لكن ابن تيمية لم يستجب لمطلب السلطان، بل أخذ في تعظيم أولئك القضاة والعلماء وقال للسلطان : ((إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم)) ولما قال له السلطان : ((إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً))، قال الشيخ: ((من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي)) . وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح، ولذا كان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ((ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا)) . [البداية والنهاية : 56/14] .

وذات مرة جاءه ابن القيم يبشره بموت واحد من أشد الناس خصومة له، فزجره زجراً شديداً وأعرض عنه وقرأ : (إنا لله وإنا إليه راجعون) وذهب لساعته إلى منزل ذلك المتوفى، فعزى أهله، وقال لهم كما يروي ابن القيم : ((اعتبروني خليفة له، ونائباً عنه،

وأساعدكم في كل ما تحتاجون إليه، وتحدث معهم بلطف وإكرام بعث فيهم السرور، وبالغ في الدعاء لهم حتى تعجبوا منه)). .

هل كان ابن تيمية متشددًا؟

شاع عند كثير من الناس أن ابن تيمية كان متشددًا في آرائه وفتاواه، والواقع أن هذه دعوى عارية عن الدليل، والقارئ بإنصاف لفتاوى ابن تيمية سيجد فيها قدرًا كبيرًا من التسامح واليسير ما لم يخالف ذلك دليلًا شرعيًا صحيحًا، وعلى سبيل المثال فقد توسع الحنابلة ومنهم ابن تيمية في قبول الشروط المقترنة بعقد النكاح حتى إنه أجاز للمرأة أن تشتترط على زوجها عند العقد ألا يتزوج عليها ولا يتسرّى، فإن أحل بالشرط فلها فسخ النكاح .

بل إنه قد ذهب في مسألة الطلاق البدعي - وهو أن يطلق الرجل امرأته في حيض أو في طهر قد جامعها فيه - ذهب إلى عدم وقوع ذلك الطلاق مخالفًا بذلك الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم .

وكذلك خالف الأئمة الأربعة في مسألة الطلاق الثلاث في مجلس واحد فأفتى بأنه لا يقع إلا طلقة واحدة .

وخالف الأئمة كذلك في مسألة الطلاق المعلق فأفتى بأن من علق طلاق امرأته على شيء - كأن يقول لامرأته إن فعلت كذا فأنت طالق - أفتى بأن هذا الطلاق لا يقع إلا إذا نوى به صاحبه الطلاق لا بمجرد التهديد أو الحمل على فعل شيء أو تركه .

وكذلك كان يفتي أن الحلف بالطلاق لا يقع به طلاق وإنما هو يمين تُكفّر .

والناظر في تلك الأقوال لا يمكنه أن يصنفها إلا في جانب التيسير ورفع الحرج المستند على أدلة الشرع الحنيف وقواعده الكلية، ومن أجل ذلك وجدنا قوانين الأسرة في بلادنا قد انتهت إلى الأخذ بقول ابن تيمية في مسائل الطلاق المعلق والطلاق بلفظ الثلاث وفي الحلف بالطلاق رغم مخالفة ذلك للمذاهب الأربعة كما أسلفنا، ورغم أن الكتب التي كانت تدرس في الأزهر كانت تشنع على ابن تيمية وتنسبه للبدعة من أجل تبنيه لتلك الأقوال، فقد ادعى الشيخ الدردير في الشرح الصغير على أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك (537/2) ادعى الإجماع على أن الرجل إذا أوقع الطلقات الثلاث في لفظ واحد

أنها تقع ثلاث طلقات، ثم قال : ((ونقل بعضهم عن بعض المبتدعة أنه يلزمه طلقة واحدة واشتهر ذلك عن ابن تيمية، قال بعض أئمة الشافعية : ابن تيمية ضال مضل أي لأنه خرق الإجماع وسلك مسالك الابتداع)) .

وكان ابن تيمية يرى أنه يستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك بعض المستحبات؛ لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل ذلك، فكان مثلاً يرى أن يجهر الإمام بالبسملة عند قراءة الفاتحة إذا كان المأمومون على مذهب من يرى الجهر بها، وذلك رغم أن الراجح عنده عدم الجهر بها، ولكنه كان يفتي بذلك تأليفاً للقلوب ودرءاً للفتنة والاختلاف .

وفي وقعة شقحب - وكانت وقعة فاصلة بين المسلمين والتتار - في رمضان سنة 702هـ - أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية الجند بالفطر وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقوا على القتال أفضل فيأكل الناس [البداية والنهاية 14 / 27] .

وكل ذلك يسقط دعاوى البعض حول تشدد ابن تيمية وتعنته وبعده عن يسر الإسلام وسماحته .

لا ندعي له العصمة :

لقد كان ابن تيمية ذا حافظة قوية وعلم غزير وإمام شديد بمذاهب العلماء، حتى قيل إنه كان أعلم بكل مذهب من فقهاء ذلك المذهب وعلمائه المعاصرين له، وكان كما يقول ابن سيد الناس: ((إن تكلم في التفسير فهو حامل رأيه، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو ذو رأيه، برز في كل فن على أبناء جنسه ولم تر عيني مثله))، وقال العلامة ابن دقيق العيد رحمه الله : ((لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد)) .

ومع ذلك كله فإن قارئ كتب ابن تيمية لا يعدم أن يجد في أقواله ما يمكن أن يستنكر عليه أو يعد من قبيل الخطأ أو الوهم، فالشيخ ليس معصوماً من الخطأ، وكل الناس يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، لكننا نحسبه -والله حسيبه - من أهل الإخلاص الذين لا يتعمدون الخطأ، وقد قال عنه تلميذه ابن كثير رحمه الله في البداية

والنهاية (145/14) : ((وبالجمللة كان رحمه الله من كبار العلماء وممن يخطئ
ويصيب، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضاً مغفور له كما
في صحيح البخاري : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر
(فهو مأجور)).

عبد الآخر حماد